عرض لكتاب :

الأدب العربي الأندلسي في القرن الحادي عشر

د. عبد الله

محمد الزيات *

La literature arabe de al-Andalus durante el siglo XI.

المؤلفة هي الدكتورة/ تريسا غارولو مستعربة إسبانية تعمل أستاذة بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بكلية فقه اللغة بجامعة مدريد المركزية ***Complutense*** وهي متخصصة في مجال الدراسات الأندلسية وبالتحديد في مجال الأدب الأندلسي وتقوم بتأدية هذه المادة إلى طلاب القسم المذكور ، وقد نشرت أعمالاً أخرى عديدة حول الأدب الأندلسي والدراسات الأندلسية بصفة عامة ، من بينها "شعر النساء في الأندلس" الذي جمعته وقامت بترجمته إلى اللغة الإسبانية ، ومقال لها بعنوان "أبو جعفر ابن جورج شاعر مغمور من شعراء القرن الخامس هـ / الحادي عشر م" الذي نشرته في مجلة شرق الأندلس التي تصدر عن قسم اللغة العربية بجامعة مدينة القنت (***Alicante***) [1] ، وآخر بعنوان "أبو جعفر بن الأصيلي ، حياته وعمله" نشرته في مجلة القنطرة ***Al – Qantara*** التي تصدر عن قسم اللغة العربية بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية في مدريد [2] .

وقد أصدرت الكتاب عام **1998** دار النشر الشهيرة في إسبانيا والمدعوة بـ ***Hiperion*** وهي معروفة في مجال نشر الدراسات الاستعرابية في إسبانيا ، ومن بين ما نشرته هذه الدار العناوين التي وضعنا لها التراجم التالية :

---

* أستاذ مساعد : قسم اللغة العربية ، جامعة الفاتح ، طرابلس ، ليبيا .

[1] المجلد الذي يحوي العددين 10-11 ، Homenaje a Maria J. Rubiera Mata وقد صدر في القنت 1993-1994 ، ص ص 403-422 .

[2] العدد 16 (1995) ، ص ص 59-82 .

الشعر العربي القديم – مختارات –	خوسفينا بغلسيون
ثلاثون قصيدة عربية	سانتشت راتيا
ازدهار الأندلس [ترجمة عن الفرنسية]	مرثيدس أرينال
شعر العرب وفنهم في إسبانيا وصقلية [ترجم عن الألمانية]	خوان باليرا
نقابة الشعراء في إسبانيا الإسلامية	رفائيل الكونُو مارتينث
الأمثال الأندلسية لابن عاصم	مارينا مارغوان
مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دي لا غرانخا
ديوان شاعرات الأندلس	تيريسا غلرولو
ابن خفاجة – حياته وأدبه –	حمدان حجاجي
عمان في سبتمبر [مترجم إلى الإسبانية]	توفيق خيميو
قواعد اللغة العربية ونصوصها الأساسية	فودريكو كورينتي
ابن قزمان صناجة أندلسية	فردريكو كورينتي

وقد جاء الكتاب في **270** صفحة من المقطع المتوسط واحتوى مقدمة وستة فصول ، واشتمل على قائمة المصادر والمراجع وفهارس للأعلام والألفاظ الحضارية وفهرساً للمحتوى .

وجاء في مقدمة الناشر التي اقتبست من مقدمة المؤلفة وأثبتت على ظهر غلاف الكتاب : "عرفت الحضارة العربية في الأندلس فترة طويلة من الازدهار تساوي في طولها فترة الإنحطاط والتقهقر اللذين عرفتهما الحضارة العربية في الأندلس ، هذه الفترة المزدهرة تشمل تقريباً أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر المسيحي حتى منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر المسيحي ، لقد ازدهرت العلوم والفنون مع دفعة تجديدية وإبداعية لوحظت في الفلسفة والهندسة والطب والرياضيات وازدهر أدب الأندلس بشكل واضح خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر المسيحي ، وبشكل خاص في عصر ملوك الطوائف الذي يضم هذا الكتاب أدبه بين دفتيه" .

وفي المقدمة تبدأ الكاتبة الحديث عن مبررات التأريخ لأدب هذا العصر فتذكر أنه كان قمة الإبداع في الأندلس في كل العلوم والمعارف خصوصاً الأدب ، وتذكر من سبقها بالكتابة في أدب هذا العصر في الأندلس فتقول : إن شهرة كتاب هنري بيريس عن الشعر التقليدي في هذا

العصر كبيرة جداً [3] ، كما تفيد أن الكتاب المشاهير والشعراء الكبار الذين حوى إنتاجهم ودراستهم هذا الكتاب قد كان الوصول إليهم سهلاً ومن ثم كتب الكثير في اللغة الإسبانية عن ابن زيدون والمعتمد وابن حزم وابن شهيد كما ترجمت أعمال هؤلاء وعرفها الجمهور الإسباني ، وتضيف المؤلفة أن هنري بيريس عند ما ألف كتابه في أدب هؤلاء وأمثالهم فإنه عنى أكثر ما عنى بالقيمة الأدبية التي تبرز ما هو توثيقي ومؤرخ ، كما أن الدراسات الأخرى غير دراسات بيريس جاءت جزئية مختصر لتاريخ الأدب ، وتذكر أن المنهاج الذي اختارته لنفسها في كتابها هو إبراز القيم الأدبية من خلال تحليل أعمال محدودة وشرح الملامح التجديدية في هذه الأعمال من داخل الأدب العربي التقليدي نفسه ولكن عبر تجربة المؤلفة قارئة للشعر الإسباني ، وهي تأمل أن يفهمها القارئ الإسباني الذي سيواجه أدباً بعيداً عنه جداً في الزمن ويخضع لبناءات تسهم في جعله أكثر بعداً .

وتتابع المؤلفة في البيان لمنهجها فتقول إنها تابعت بيريس وابن بسام في تحديد الفترة المدروسة ولكنها اختلفت عن الأخير حين قررت إنهاء الدراسة مع موت المعتمد ابن عباد سنة **488 / 1095** ، لأنه نهاية عصر الطوائف في رأيها ، وتذكر أنها وظفت في كتابها هذا التخطيط نفسه الذي استعملته في الفصل الذي كتبته عن الأدب ضمن "موسوعة رامون مينيندث بيدال لتاريخ إسبانيا" [4] التي أشرفت عليها المستعربة الإسبانية د. ماريا خيسوس بغيرا مولنس ، غير أن المؤلفة تفيد أنها أضافت ونقحت تلك المادة التي قدمتها هناك ،كما تعترف بإفادتها من استشارات بعض زملاء لها وأصدقاء أفادوها في هذا الشأن من بينهم المستعربة الإسبانية ماريبيل فيرو والمستشرق ***Monroe James*** الذي استفادت منه مناقشات وشروحاً أثناء تفرغها العلمي في جامعة ***Berkeley*** في العام الجامعي **1994 – 1995** .

---

[3] عنوان هذا الكتاب في اللغة الفرنسية هو **La poesie andaluse en arabe classique au Xl siecle aspects generaux , ses principaux themes et valour documentaire , paris , 1953** . وقد ترجمه الدكتور/ الطاهر مكي إلى اللغة العربية بعنوان "الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية" دار المعارف يونيو 1988 ، كما ترجمته إلى اللغة الإسبانية المستعربة ميرثيدس أرنال بعنوان [ازدهار الأندلس] ونشرته دار ابيريون عام 1992 .

[4] عنوان الموسوعة والمجلد والجزء الذي كتبت فيه المؤلفة فصلها المذكور : **Historia de Espana Ramon : Menendez pedal , VIII,I,Los Reinos de Taifas , al Andalus en siglo Xl . Espasa Calpe , Mdrid Espan 1994 .**

الفصل الأول : وضع الدراسات حول الأدب الأندلسي

تتحدث فيه المؤلفة عن أهمية إنتاج القرن الحادي عشر في الأدب العربي في الأندلس وتذكر أنه على الرغم من كثرة الدراسات حول هذا الإنتاج فإن هذا العصر لم يعرف معرفة مناسبة لأن أيدينا تخلو من دراسات منهجية حول موضوعات محددة تسهل – لو وجدت – مهمة استنتاج رؤية متكاملة ، وتذكر من الأسباب التي تجعل المهمة صعبة أن قسماً كبيراً من الإنتاج الأدبي للقرن الخامس هـ / الحادي عشر المسيحي لم تصل إلينا ، وما وصل من الدواوين لم يتعد العقد إلا بنيف ، أو قليل من الأعمال الأدبية النثرية ، وفي الواقع لم تصل أي مختارات نثرية من الرسائل ، وإن ظهر بعض الأعمال منفرداً بفضل مجهود بعض الدارسين الباحثين ، كما تذهب في هذا الفصل إلى ذكر أهم مصادر الأدب الأندلسي التي اعتمدت عليها في دراستها مثل الذخيرة والقلائد وغيرهما ، وتذكر بعض المقارنات بين عصر ملوك الطوائف والعصر العباسي في رعاية الأمراء والحكام والساسة للأدب والفكر كما هو الشأن في أعلام مثل الصولي ومحمد بن عبد الملك الزيات وغيرهما مقارنة إياهم بكبار الأدباء في عصر ملوك الطوائف ، وتحدد الأدباء الذين ستدرس إنتاجهم بحوالي مائتين وخمسين كاتباً وشاعراً وتشير في الفصل إلى مشكلة رئيسة وهي عدم وجود إحصاء كامل لشعراء العصر وناثريه وعدم وجود قوائم للأعمال المحتفظ بها من العصر ، وبوجه عام عدم وجود مصدر متكامل يسمح بتقويم أعمال شعراء كثر لا مفر من وصفهم بكونهم شعراء صغاراً أو مغمورين ، ولابد لدراستهم من العودة إلى أعمالهم المنثورة في مصادر مختلفة للأدب الأندلسي ، وذكرت المؤلفة أسماء من درسوا من شعراء هذا العصر وأبانت عن وجهة الدراسات التي تناولتهم قبلها مثل الدراسات التي قامت على ابن حزم الفقيه والدراسات التي قامت على ابن زيدون شاعر الحب ، وابن عباد الذي اجتذب الدارسين إليه – منذ أيام ابن بسام – قصته المأساوية .

وأشارت في هذا الفصل إلى قضية التأثر والتأثير بين الأدب الأندلسي والأدب العربي في المشرق مستغلة في ذلك مقالة للمستعرب الإسباني إلياس تيريس كان قد نشرها في مجلة الأندلس واشتكت من عدم وجود دراسات وأبحاث حول تطور الأنواع الأدبية أو الأغراض الشعرية في الأندلس .

الفصل الثاني : الأدب العربي والأدب الأندلسي

انطلقت فيه الكاتبة من مسلمة أن جذور الأدب الأندلسي هي الأدب العربي في المشرق فتحدثت في لمحة قصيرة عن نشأة الشعر العربي وحب العربي للشعر ومكانته لديه ، وهي أشياء ضرورية للقارئ الإسباني وإن كان متخصصاً ، ثم تمضي في بيان أول توثيق وكتابة للشعر العربي ذاكرة أهمية الرواية الشفهية التي حافظت عليه قبل تدوينه ، كما تشير إلى أن الطابع الجماعي أو طابع الجماعية في الشعر العربي ، الذي جاءه من كونه اعتمد على الرواية الشفهية ، جعله يخلو من الإبداع الفردي الحقيقي ، وتنسب إلى بلاشير قوله إن تلك ميزة ظاهرة في الشعر العربي ، وهي أكثر بروزاً فيه حتى العصر الحديث .

وتعطي الكاتبة في هذا الفصل معلومات وإن كانت بدهية بالنسبة للمتخصص العربي فإنها مهمة جداً بالنسبة للقارئ الإسباني ، خصوصاً غير المتخصص ؛ فقد تناولت بشكل عام تاريخ الشعر العربي قبل الإسلام ؛ نشأته ، شعراءه ، المعلقات ، مفهوم القصيدة ، عدد أبياتها ... إلخ ، كما تبين أغراض الشعر العربي الجاهلي وأغراض القصيدة العربية بصفة عامة مستضيئة في ذلك بآراء نقاد ومؤرخين عرب مثل ابن قتيبة ، وترى أن النموذج الذي تحدث عنه هذا الأخير لا ينطبق على القصيدة الجاهلية ولا على القصيدة في عصره ، وإنما يصدق على القصيدة في عصر بني أمية ، وقد أفادت أن ما يهم من كلام ابن قتيبة في القصيدة على النحو الذي انتحاه هو أنه يعرض القصيدة وحدة فاعلة تثمن إرادة الشاعر الواضحة في خلق عمل موحد والمحافظة على التوازن بين عناصره ، وبهذا الوصف فإن القصيدة تحمل دليلاً حركياً يبنيها في تقدم مرحلي على الأقل من وجهة نظر موضوعية ، فالشاعر وهو يصنع القصيدة يتجه إلى مصطلح حاضر في وعيه قليلاً أو كثيراً ، إنه لا يفهم على أنه معارضة للمخططات الذاتية الموصولة ، ولكنه حدث ذو أدوار تحترم التقدم ، على أنه ومن داخل الشعر الجاهلي يجب التفريق بين القصيدة القبلية والقصيدة المادحة ، ويعد من أهم ميزات القصيدة التي سمتها قبلية وصف الراحلة ، وهو موضوع يبقى بالأصل مدحاً ذاتياً للشاعر ويتطور عبر عديد من الأبيات (10-30 بيتاً) ، وإن وجد في الغالب إشارات إلى السفر عبر الصحراء وهو ما يحاول فيه الشاعر تعداد الميزات الجيدة لراحلته ، وفي الحالات التي يذكر فيها ذلك الرحيل فإنه يكون قصيراً (2-4 أبيات) فهو مثل وصف الراحلة ينتمي

إلى المدح الذاتي من الشاعر لنفسه حيث يظهر فيه تجلده وقيمته في أمكنة تكون حياته فيها في خطر واضح ، وتمضي المؤلفة في تحليل أجزاء القصيدة العربية بأنواعها المتعـددة وأغراضـها المختلفة في العصر الجاهلي ، وخلصت إلى القول إن الشعر الجاهلي مثل على مختلف العصـور عند العرب ما تمثله الآداب اليونانية التقليدية عند أهل الفكر والأدب في الغرب .

وتعرج الباحثة على ذكر ما أثير من أن الإسلام قد حد من نشاط الشعر ناقلة ذلك عـن المستشرق جب ، مبينة أن ذلك أثار كلاماً كثيراً في النقد وتاريخ الأدب العربي القديم ، مـن مثل ما قاله بعضهم من أن العرب ألهوا بالفتوح والقرآن عن الشعر وقرضه ، ورغم ذلك كان للفاتحين كثير من الشعر ، وإن كان هذا الشعر من الصنف القصير الذي أطلق عليه القصـيدة القبلية التي اتخذت لها موضوعاً للتعبير عن الحياة الجديدة التي أصبح يعيشها العرب بعد الإسلام ، وقد زحزحت تلك القصيدة بهذه المفاهيم القرآنية الجديدة القصيدة القبلية بالمفهوم القديم من مكان الصدارة لاستحداث هذا الواقع الاجتماعي الثقافي الروحي الجديد الناتج عن الـوحي القرآني ، وبالضبط فإن هذا النوع من الشعر أنتجه فاتحون ومحاربون عرب في شـبه جزيـرة إيبيريا ولم ينتجه رجال أدب وفكر هناك .

وهكذا تربط المؤلفة بين الشعر الأندلسي – وهو جزء رئيسـي في موضـوع كتابهـا – وجذوره في المشرق ، وتمضي لتقول إن ذلك النوع من الشعر استمر بنـوع مـن القلـق في الأندلس ما يقرب من قرن من الزمان متعلقاً بالشعر العربي في المشرق ومتابعـاً تطـوره ، وتضـرب مثـالاً لـذلك أبياتـاً للشـاعر جعونـة ابـن الصـمة الكـلابي (ت قبل **755/138**) ، وأيضاً لبعض أمراء العصر .

وتعود المؤلفة لتعد ميلاد الخلافة الأموية في المشرق أو بعيده بقليل نقطة تحول في القصيدة العربية كان قد مهد لها الإسلام منذ إعلان الدعوة لتتجذر في هذه الفتـرة بشـكل أقـوى خصوصاً مع انتشار الإسلام في سوريا والعراق وفلسطين بعد أن تمسك الناس بلغة شعر ما قبل الإسلام ، أي بلغة القرآن ، لغة رسمية ، ولغة شعر وأدب وفن .

وتتابع المؤلفة تاريخ الشعر العربي حتى تصل إلى العصر العباسي وتذكر تلك الظواهر الأدبية والفنية التي عرفها العصر مثل الكتابة في موضوع الحب التي عرفها أيضاً الأنـدلس في أديبـه الكبير ابن حزم ، وتعرض لذكر بعض التقاليد والمظاهر التجديدية الأخرى في القصيدة الرسمية

وتلك التغيرات التي طرأت على وظيفة الشاعر في المجتمع العربي بين ما كان عليه في الجاهلية وغيره من العصور المتحضرة أو المتمدينة ، والجميل في أسلوب الكاتبة في هذا الفصل أنها تربط بين الظواهر المتشابهة والحركات ذات العلاقة فيما بينها في الأدب العربي بطرق ذكية ومفيدة ؛ مثلما فعلت في الربط بين تطور الحب ومفاهيمه وأثر ذلك في القصيدة العربية منذ عصر بني أمية إلى ما حصل في كتابه الحب العذري وتجاربه في طوق الحمامة لابن حزم ، وما كان في شعر الخمر ابتداء من الوليد بن يزيد حتى عصر أبي نواس وبشار بن برد الذي تذكر الكاتبة أنه أبو الشعراء المحدثين في نظر النقاد العرب .

كما تشير في عجالة إلى أن وظيفة الشاعر تغيرت من شاعر يتغنى بشرف القبيلة ويدافع عنها في العصر الجاهلي إلى شاعر يتغنى بشرف الأمة ويدافع عن الجماعة المتمثلة في الأمة أو الدولة ، تلك الدولة التي يحتاج حكامها إلى مدائح يقولها فيهم شعراء كبار بغض النظر عن علاقة هؤلاء الشعراء بقبيلة الحاكم وارتباطهم به عائلياً من عدمه ، وترى الباحثة أن القصيدة التي نجمت في قصر الأمويين هي القصيدة الأدبية وليست القبلية ، وتمضي في بيان العلاقة بين الأدب والفكر في المشرق ، خصوصاً في بغداد والأدب في الأندلس ، وما حدث من تطور في العصر العباسي الذي عد عصراً ذهبياً للأدب العربي ، وأثره في أدب الأندلس ، وتعرض بشكل خاص إلى ذكر ظهور النثر الفني والأدبي في هذا العصر في المشرق بوجود كتاب كبار وحركات أدبية وفكرية مثل الجاحظ والمعتزلة ، وما كان في تلك الحركات من آثار هلينية أو فارسية ، وتخلص من ذلك إلى الحديث عن ظهور المذهب البديعي لدى الشعراء المحدثين في العصر العباسي ، وما سمي بالمعركة بين القدامى والمحدثين ، وتتحدث عن شعراء التجديد والبديع وغير ذلك من أمثال أبي تمام الذي تراه شاعر التجديد والحوار والاستعارة الجديدة وما عرف بالمذهب الكلامي ، وتنطلق من هذا إلى مقارنة عصر أبي تمام وما جاء به من ظواهر أدبية نقدية بعصر الشاعر الإسباني الحديث غونغرا ***Gongora*** وأثره في الشعر الإسباني الحديث .

كما تعرج الباحثة على ذكر أحداث الشعوبية في المشرق والمذهب التجديدي الذي حمل لواءه بعض الشعراء الذين هم من أصل غير عربي مثل أبي نواس وبشار حين سخرا من تقاليد شعرية بدوية لا تتناسب مع الحياة المدنية الجديدة ، وانتقلت من ذلك لتعود إلى الأندلس وتربط

الحياة الأدبية هناك بتلك الحركات في المشرق ، فتذكر أن السياسة الثقافية للحكم الأول وعبد الرحمن الثاني ساعدت على انتقال تلك التجارب الأدبية والترعات التجديدية إلى الأندلس ، وتذهب الكاتبة إلى أن الاستجابة للشعر المحدث في المشرق ظهر صداها في الأندلس في نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع المسيحي ، وبداية القرن الرابع الهجري / العاشر المسيحي وذلك في الموشحات .

وترى الباحثة أنه ليس من المصادفة أن يتم في زمن الأمير عبد الله جمع العرب والمولدين وغيرهم من الأجناس تحت قرطبة ، ويبتدع شاعر يعيش في قصر هذا الأمير ، وهو الشاعر مقدم ابن معافى ، شعر الموشح الذي يحمل في الوقت نفسه المحاولة الفكرية للتوحيد الثقافي بين العربي القح ، وهو أغلب الموشحة ، مع العربي المولد ، وهو العامي ، أو مع الأعجمي ، اللذين يأتيان في الخرجة ، وتلك الازدواجية تحمل سخرية ومزاجاً يشبهان جداً في روحهما بعض أشعار بشار وأبي نواس .

كما لا تنسى الكاتبة أن تذكر نقطة أخرى هامة في تاريخ الأدب العربي ، تلك التي تولدت معها المقامات حين تحول النثر إلى فن كتابي ، إلى متعة في المجالس والمنتديات ، كما أن هذه الفترة صاحبتها أو أعقبتها فترة تحلل الخلافة العباسية التي كانت نعمة على الأدب لأن العواصم الأخرى نافست بغداد وأخذت تحاول أن تظهر عليها في مجالات عديدة منها الأدب ، وكل الإنتاج الأدبي الأندلسي تحقق عملياً عبر هذه الفترة التي تبدأ الآن ، ولكنه يدين أيضاً إلى كل الفترات السابقة أي منذ اللحظة الأولى لدخول العرب شبه جزيرة إيبيريا .

الفصل الثالث : محاولة في تقسيم العصر إلى فترات

في هذا الفصل تصنف الكاتبة الأدباء المراد دراستهم إلى مجموعات رأت تصنيفهم فيها ومن ثم درستهم طبق هذا التصنيف فبدأت بابن شهيد وابن حزم اللذين جعلتهما في تصنيف واحد ، ثم طبقة من ملوك الطوائف الشعراء مثل المعتضد ابن عباد والمظفر ابن الأفطس المعاصرين لابن زيدون وابن عمار ، ثم المعتمد ابن عباد خاتمة هذه الأجيال من الشعراء ، وتذهب إلى أن كل حكام هذا العصر كانوا شعراء ورجال آداب ، يدل على ذلك ما جاء في الذخيرة والقلائد

والحلة السيراء حيث يقتبس فيها مؤلفوها شعراً للأمراء من الأسر التي حكمت السهلة والمرية وبطليوس ومرسية والمدور وشنتمرية الغرب وسرقسطة وإشبيلية ، وكذلك غرناطة التي – وإن اشتكى الشعراء فيها عدم مبالاة حكامها البربر بالشعر – نجد لآخر أمير طائفي فيها وهو عبد الله بن بلكين معرفة بتقاليد الأدب العربي كما يدل على ذلك كتابه التبيان ، وعلى أية حال فإن المؤلفة تضع هذا الفصل في مباحث جاءت تحت العناوين التالية :

1- إرث الخلافة 2- أدباء عصر الفتنة 3- ملوك الطوائف ، العصر الأول 4- عصر المعتمد .

الفصل الرابع : النثر في القرن الخامس هـ / الحادي عشر م

وتبدأ هذا الفصل بالحديث عن مشكلة النثر الأندلسي الرئيسة وهي اتصافه كغيره من النثر العربي منذ القرن الرابع ، بالتأنق المتكلف عندما أصبح النثر السجعي نثراً أدبياً وخضع أغلب الأدباء العرب لوطأة السجع ، لم يستثن من ذلك كتاب مثل ابن حيان الذي لم يستطع أن يتحرر من هذه الطريقة .

وإن بدا أحياناً أن كتاب النثر الأندلسي يحذرون من المبالغة في السجع وطلبه على حساب المعنى كما يفهم من محاولة ابن شهيد الاعتذار عن سجعه أمام صاحب الجاحظ في رسالة التوابع والزوابع ، ترى الكاتبة أن العودة إلى الوراء في هذا العصر – أي التحرر الكامل من السجع – أصبحت صعبة ، خصوصاً بعد تطور الأذواق الأدبية ، كما تستثني الكاتبة من أولئك الكتاب الذين طغى على أسلوبهم السجع كتاب الفقه مثل ابن عبد البر وابن حزم ، وهما وإن كانا كذلك ، أي منتجي فقه وفلسفة فإن أعمالهما لها مقاصد أدبية لم يستعملا فيها السجع .

وتقارن المؤلفة بين أسلوب الجاحظ في نثره وأسلوب عبد الله بن بلكين في كتاب التبيان الذي استعمل فيه طريقة سهلة وبسيطة ، كما تقارن بين مادتي كتاب العقد وكتب بهجة المجالس ، وتجعل السبب في اختفاء كثير من الأعمال النثرية المتكاملة هو أن السجع كان حاضراً دائماً في أذهان من يكتبون لأغراض أدبية أو لبواعث أدبية محضة ، وذلك لصعوبة الالتزام بالسجع دائماً ، ولهذه الصعوبة افتقدت الأعمال الطويلة الأداة التي تربط أجزاءها ،

وتخلص من ذلك إلى القول : إن النوع المتميز والحسن الذي وجد في الأندلس في هذا العصر كان المقامات على طريقة مبدعها بديع الزمان الهمذاني ، وعبر المقامات أو النثر المسجوع ، استطاع الأديب الأندلسي أن يتحدث في كل الأوصاف ، مثل وصف الأزهار والمناظر والأحاسيس مبدعاً بذلك أعمالاً فنية في صور مائية ، أو كأنها صور لا ينقصها الألوان والظلال والتقاسيم ، وكذلك فعل ابن خاقان وابن شهيد ، وهذا الأخير عارض الهمذاني في رسالة التوابع والزوابع ، خصوصاً عندما اقتبس مقاطع أو صوراً من مقامة بديع الزمان "المضيرية" .

الفصل الخامس : الشعر المقطعي [الموشحات والأزجال]

تدرس هنا المؤلفة أصول الشعر الشعبي في الأندلس أي الموشح والزجل ، فتتناول نظريات نشأتهما وأيهما أسبق من الأخر والداعي إلى هذا الفن أو ذاك ، وتقف عند أجزاء الموشحة وتركيبها وأسمائها ووجود الموسيقى العربية فيها وفي الزجل من عدمه ، كما تقف عند نظريات في أصول الشعر الشعبي الأندلسي وتشير في ذلك إلى آراء قديمة مثل آراء ابن بسام وابن سناء الملك وآراء ونظريات حديثة مثل نظرية غرثيا غومث ومنيندث بيدال وترد أصول الأدب الشعبي الأندلسي وإرهاصاته إلى عصر عبد الرحمن الثالث وابن حفصون ، وذلك لما ورد من عبارتين شهيرتين ؛ حيث قال أحد قادة ابن حفصون قاصداً أحد قواد الأمير عبد الرحمن : "ردوا ابن أمو في فمو" فأجاب أحد جنود عبد الرحمن : "والله ما نردها إلا رأس ابن حفصون في كمو [أو حكمو]" ، وهو رأي في أصول الموشح والزجل لم أر من قال به غير هذه المستغربة أو بعضاً ممن سبقها من المستغربين الإسبان .

الفصل السادس : الأغراض الشعرية

درست المؤلفة في هذا الفصل الأغراض الشعرية التي عرفها العصر المدروس فمثلت لذلك بأبرز الشعراء في كل غرض من هذه الأغراض ، سائقة ترجمات لأبرز عيون الشعر في هذه الأغراض ، وترجمت نصوصاً شعرية لابن الأصيلي في رثاء أبي عبد الله بن إبراهيم الفهري وضربت مثلاً في الرثاء الصادق للحكام من ملوك الطوائف برثاء ابن اللبانة لأسرة المعتمد ابن عباد .

كما أشارت في هذا الفصل إلى ظاهرة رثاء الشعراء الأندلسيين لأموات مضى زمن كثير على موتهم مثل ما قاله أبو جعفر بن جورج في رثاء ابن شهيد عند ما رأى قبره في حدائق الزجالي بقرطبة ، وساقت ترجمة لرثاء هذا الشاعر للوزير الشاعر ابن عمار ، وألمحت إلى ذكر قصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس ، وعرضت تراجم لنماذج رثائية أخرى أكثر خصوصية وأوفر صدقاً مثل رثاء المعتمد لابنيه المأمون والراضي ، ورثاء ابن عبد البر لابنيه أيضاً .

وقد لاحظت الباحثة أن شعر رثاء المرأة التي تقع ضمن أفراد أسرة الراثي جاء أغلبه ضمن مقطوعات قصيرة ، كما أن الشعر الذي قيل في نساء من الأسر الحاكمة كان قليلاً في عمومه ، وكان شبيهاً في روحه بأشعار العصر الجاهلي وبعيداً من روح الشعر الذي يرثي الحاشية في القصر ، وتذهب إلى أن هذه الأشعار الرائية للنساء من الأسرة لا تترك شيئاً واضحاً من العلاقة بين الراثي والمرثية ، بل تبدو هذه العلاقة على خجل كما هي عادات العرب وتقاليدهم التي تقتضي أنه من الوقار عدم الإفصاح عن العلاقات بين الرجال والنساء أو تفاصيلها ، وتستثني المؤلفة في زعمها ابن دراج الذي قالت إنه تقريباً الوحيد في هذا القرن الذي يذكر زوجته في أشعاره ، وترد ذلك فيما تزعم إلى أصول ابن دراج البربرية التي لا تجعله يتحرج من ذكر الزوجة أو العلاقة بينه وبين زوجته في شعره ، لأن الحضارة البربرية تتساهل في ذلك .

وتأتي المؤلفة في هذا الفصل على ذكر رثاء المدن ، وتجعل هذا القرن الذي تؤرخ لأدبه بداية لظهور هذا النوع من الشعر ، وتضرب أمثلة لذلك برثاء ابن شهيد لقرطبة وابن العسال لطليطلة ، كما تشير إلى ترجمة إسبانية لقصيدة عربية في رثاء مدينة بلنسية في سقوطها أمام السيد الكمبيدور ، ضاع الأصل لهذه القصيدة ، واحتفظت موسوعة تاريخ إسبانيا العام ***Cronica general de Espana*** بالترجمة الإسبانية .

كما تتناول المؤلفة الحديث عن شعر الوصف في الأندلس وتعده ذا علاقة بالحياة البلاطية ، وتذهب في تجذير أصول الشعر الوصفي إلى العصر الجاهلي ثم العصور الموالية ، وتذكر العلاقة بين شعراء الوصف في الأندلس وشعراء الوصف في المشرق فتذكر ابن الرومي وابن المعتز والصنوبري وأمثالهما وتخرج إلى القول : إن شعراء الأندلس قد برزوا في شعر الوصف والطبيعة على شعراء المشرق ، رادة السبب في ذلك إلى الطبيعة الأندلسية نفسها ، وقد وقفت الباحثة طويلاً عند نماذج كثيرة من شعر الطبيعة في الأندلس محللة ومترجمة النصوص ، كما تقف عند غير شعر الطبيعة من الأغراض الأخرى في الأندلس من خمريات ومجون ، وفخر وحماسة ، ومدح وهجاء ، وزهد وتصوف .

ولا شك في أن المؤلفة قد استفادت في تأليف كتابها من آراء كبار المستشرقين ونظرياتهم الدارسين للأدب العربي أمثال بلاشير وجب ونيكل ومونر وزويتلر وألبيرتو لورد وغيرهم من كبار المستعربين الإسبان مثل مينندث بيدال وغرثيا غومث والفرنسيين من غير من ذكروا سابقاً ، مثل بوفنثال وماسينيون وهنري بيريس وغيرهم ، ومن نافلة القول أنها اعتمدت المصادر العربية ورجعت إلى كثير مما كتبه مؤرخون محدثون للأدب العربي بصفة عامة والأدب الأندلسي بوجه خاص .

ولقد أشارت المؤلفة في صلب كتابها إلى مشكلة تواجه المترجم دائماً ، وهي نقل بعض دقائق اللغة وخصائصها الموسيقية والصوتية ، أو ما يضيفه النص من معان حضارية باللغة نفسها ولا يستطاع تذوقها من خارجها مهما كانت براعة المترجم ، ومهما بلغت إحاطة الناقل بدقائق اللغتين .

والكتاب من الكتب القليلة الشاملة والجامعة التي أرخت للأدب الأندلسي والتي ألفها مستعربون إسبان ، ذلك أن هذه الكتب لا يتعدى مجموعها عد الأصابع كما يقال ، ويرى محرر هذه السطور أن هذا الكتاب جدير بالترجمة والنقل إلى العربية ، ولعل الله يمن بالوقت والصحة والتوفيق للقيام بهذا المشروع مستقبلاً ، إنه واسع الفضل كثير المنن والحمد له أولاً وآخراً .